خواطر حول دور الأرياف في الحركة الوطنية التونسيّة بين 1881 و1956

الهادي التيمومي
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس

يمتدّ تاريخ تونس الى عدة قرون ، وهي مسافة زمنية كبيرة بالمقارنة مع تاريخ الكثير من البلدان المتقدمة اليوم. والشعب الحي هو الشعب الذي يعيش دائما على صلة وجدانية وثيقة بتاريخه. وللتاريخ كما هو معروف قوة عظيمة للايحاء والتذكير والتنبيه واستنهاض الهمم ورفع المعنويات.

لقد عانت تونس الاستعمار قديما وحديثا ،لكنها خرجت دائما من محنها الحالكة محتفظة بمقومات شخصيتها المتميزة ،وذلك بالرغم من أن السلطة السياسية ظلت لآماد طويلة في أيد غير أيدي أبنائها.

ان تاريخ تونس ملحمة طويلة صنعها الشعب التونسي بمدنه وبأريافه على حدّ

السّواء. الا أن الكثيرين عن وعي أو عن غير وعي ظلّوا دائما يعتبرون المدينة في تاريخ تونس هي الاصل والجوهر والحلقة المركزية وبؤرة الاشعاع بينما الأرياف هي الفرع والشاذ والهامش والابن العاق.

ان الانتفاضات الفّلاحية مظهر من مظاهر استمرارية الشخصية التونسّية عبر العصور ،فانتفاضات الفلاحين لم يكن دافعها تكوينا نفسيّا متسّلطا أو نزوعا متوارثا للتمرد كما ادعى ذلك الكثيرون.لقد كان الفلاحون يثورون ضدّ القهر الاجتماعي والسياسي والديني،وانتفاضاتهم لم تكن لتتكرّر الا لأنّ الانتفاضات التي سبقتها لم تحقق الاهداف المرسومة لها. ولعلّ عيب الفلاحين الوحيد أنهم مناضلون "صامتون" لا يدّونون تاريخهم مثل نظرائهم في المدينة،والسجل الوحيد الذي دوّنوا فيه البعض من مآثرهم هو الشعر الشعبي،لكن ماذا بقي من هذا الشعر الشعبي ؟ النزر القليل دون شك،وما هي النظرة السّائدة حيال هذا الشعر الشعبي ؟ نظرة الاستنقاص دون شك.

لقد رزحت تونس تحت الاستعمار الفرنسي خمسة وسبعين عاما دفع خلالها الفلاحون ضريبة الدم بسخاء كبير على منوال أجدادهم الذين قاوموا بلا هوادة الاستعمار الرّوماني والوندالي والبيزطي وغيره.

ان أقدام الغزاة لم تطأ أرض تونس في أواخر أفريل 1881 حتّى هبّ الفلأحون على اختلاف انتماءاتهم القبلية والاجتماعية والطّرقية (نسبة الى الطرق الدينية) لمقاومة جحافل الهمجية العصرية.ورغم ان الارياف كانت منهكة من جرّاء مظالم البايات وحمقهم وضعف احساسهم بالانتماء الى تونس،ورغم جنوح معظم التجمعات الحضرية الى ايثار السّلامة،خاض البدو بأسلحتهم العتيقة معارك طاحنة ضدّ القوات الفرنسيّة المدّججة بأحداث الاسلحة،وكان ذلك وراء قادة كان أغلبهم ولاة فيما مضى نخص بالذكر منهم علي بن خليفة النفاتي وعلي بن عمار العياري والحاج حرّاث بن محمد القرشيشي وحسين بن المسعي ,علي بن عمارة الجلاصي واحمد بن يوسف الهمامي ...

ودفع هؤلاء البدو مئات القتلى والجرحى دفاعا عن البلاد التي "باعها" الباي للنصارى كما كانوا يقولون آنذاك.الا أن شجاعة الشجعان لم تكن كافية بمفردها لمجابهة المحتلين. فكان قرار المقاومين أن يهاجروا الى إيالة طرابلس الخاضعة آنذاك للحكم العثماني،على أمل أن يعودوا الى تونس مصحوبين بالجيش العثماني لطرد المحتلين.وتحوّل الى إيالة طرابلس ما بين 120.000 و 140.000 من الفلاّحين بنسائهم وأطفالهم وقطعانهم،أي ما يقارب عشر سكان البلاد التونسية آنذاك.وكان "العام اللّي تبلت فيه الناس" كما خلّدته الذاكرة الشعبية.وخاب ظن المقاومين في الامبراطورية العثمانية مركز الخلافة الاسلامية،فسمّوها "الباب الخالي" عوض الباب العالي. لقد عانى هؤلاء المهاجرون في بوادي الغرب الليبي القاحلة الجوع والعطش والتشرد فضلا عن تجريد السّلطات العثمانية لهم من أسلحتهم. ولم يبق أمامهم سوى الرجوع الى أرض الوطن،وعادوا وكلّهم قناعة بأنهم وإن خسروا معركة فانهم لم يخسروا الحرب مع الفرنسيين.وخيّم ليل الاستعمارالحالك على البلاد تحت اسم ما كان يعرف في الدجل السياسي بنظام "الحماية" .وانهمك هذا الاستعمار في استغلال موارد البلاد وامتصاص خيراتها ،وطفق يجرد الفلاحين من خيرة أراضيهم ليمنحها لشراذم المستوطنين التي بدأت تتوافد على البلاد بغية الاثراء السّريع.

ورغم أن الاستعمار الفرنسي كان آنذاك في أوج قوته،لم يتردد الفلاّحون الفراشيش في ربيع 1906 من الثورة عليه، مستغلين حلول ولّي جزائري فقير بينهم هو عمر بن عثمان .وكانت "خطرة الفراشيش "كما خلّدتها الذاكرة الشعبيّة. ولا يزال شيوخ الفراشيش يتحدثون الى اليوم عن حفرة "الاثناش" ،وهي الحفرة التي ضمّت رفات الذين حصدهم رصاص الاستعمار صباح يوم الجمعة 27 أفريل 1906 .

وبعد أقل من تسع سنوات من هذه الهبّة،حمل اولاد دبّاب في الجنوب التونسي بقيادة الاخوين سعيد وعلي الدبابي وكذلك عمر الابيض لواء الانتفاضة ضدّ الغزاة،وأشعلوها حربا حقيقية ضدّ القوات الفرنسية المنشغلة بالحرب العالمية

الاولى.وقاتل أحرار الجنوب جنبا الى جنب مع أحرار ليبيا ضدّ القوات الفرنسية في تونس والايطالية في ليبيا ،غير عابئين بالحدود التي رسمها الاستعمار بين البلدين،وسقط مئات الشهداء في معارك أم صويغ والرمثة وذهيبة وبير مغري ... الخ.

لقد كانت "قيرة أولاد دبّاب" كما خلّدتها الذاكرة الشعبية جبهة لا تقل أهمية عن بقية جبهات الحرب العالمية الاولى ،وذلك باعتراف السلطات الفرنسية نفسها ،اذ لم تتمكن فرنسا من اسكات صوت هذه الانتفاضة الا بعد ان دفعت الى معاركها في الجنوب التونسي باكثر من 20.000 جندي على امتداد ثلاث سنوات،وبعد ان استعملت الطائرات والغازات السّامة . ولم تعلن السّلطات الفرنسيّة عن كل خسائرها البشرية في معاركها مع أحرار الجنوب حرصا على معنويات عساكرها ،بل اعترفت فقط بموت 748 جنديًا (!)

وما ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها حتى عادت فرنسا لتطبق من جديد على البلاد محاولة استرداد ما خسرته اثناء الحرب،وذلك على حساب تونس وبقية مستعمراتها الاخرى. وجاء موقف الرفض لهذه السّياسة الاستغلالية المكثفة من اولاد بلواعر في النفيضة ، اذ تحدّوا في اواخر العشرينات "الشركة الفرنسيّة الافريقية" التي كانت بمثابة الدولة داخل الدولة شأنها في ذلك شأن شركة صفاقس - قفصة للفسفاط.

ولم تكن انتفاضة اولاد بلواعر الصوت الوحيد الذي شقّ عصا الطاعة في وجه السّلطات الفرنسية غداة الحرب العالمية الاولى،بل تطوع كذلك بعض أحرار الوسط والجنوب من امثال محمد الدغباجي والبشير بن سديرة للتضحية بانفسهم حتى تبقى جذوة الكفاح ضدّ الاستعمار حيّة ملتهبة.

ورغم ما كانت تزخر به الارياف من طاقات نضالية كبيرة ، فان الحزب الحر الدستوري "القديم" الذي تشكل عام 1920 لم يع بضرورة ربط نضاله في المدينة بنضال الفلاّحين في الارياف. وهذه وحدة من اهم نقاط ضعف هذا الحزب التي مكّنت

الاستعمار من تقزيمه.كما مكّنت الاستعمار في آلان نفسه من الحدّ كثيرا من فاعلية حركات الفلاّحين في الأرياف.

واستغلّت أكثر الطلائع وعيا في الأرياف التونسية هزيمة فرنسا النكراء امام النازيّين في بداية الحرب العالمية الثانية واعتلاء باي ذي ميول وطنية العرش الحسيني هو المنصف باي،فاستأنفت العمل المسلّح ضدّ القوات الفرنسية. وكان تمرد "المرازيق" بقيادة علي الصيّد في الجنوب ثم تمرد "فلاقة زرمدين" الذين تحولوا من الثورة على الاوضاع الاجتماعية الى الثورة السياسية المسلّحة ضدّ فرنسا. فأقضوا مضاجع الفرنسيين في السّاحل على امتداد سنوات طويلة.

وعندما قامت الحرب العربيّة الاسرائيلية الاولى عام 1948.توجه مئات من المتطوعين من فقراء الارياف التونسيّة نحو المشرق العربي للدفاع عن فلسطين،رافضين سياسة الاستعمار الفرنسي المتمثلة في تقطيع صلات الشعب التونسي بمحيطه العربي الاسلامي.

وما ان طرقت الخمسينات الابواب حتى دخلت حركة الفلاّحين ضدّ الاستعمار الفرنسي طورا جديدا ،فبالاضافة الى تعمّق الوعي الوطني في الارياف. أصبح الفلاّحون يعانون بؤسا مرعبا وفاقة لا مثيل لها. وبينما وصلت نسبة الالات الفلاحية التي كانت بحوزة المستوطنين الفرنسيين بالارياف التونسية غداة الحرب العالمية الثانية أرقاما قياسية عالمية، بلغت نسب الفقراء والمشردين في الاراضي التي بقيت بحوزة التونسيّين أرقاما مفزعة،ناهيك أنّ الاراضي التي كانت فيما مضى تزخر بالخير العميم،أصبحت تعجّ بمحتشدات الجياع مثل محتشد عين جلولة (القيروان) السيء الذكر، كما أصبحت طوابير النازحين من الارياف تتهاطل باستمرار على احزمة البؤس وأحياء الصّفيح المحيطة بالمدن الكبرى. وكانت حركة الكفاح المسلّح التي عمّت الكثير من الارياف التونسية في بداية الخمسينات، وهي انفجار ثلاثة ارباع قرن من المعاناة والالام واعمال

القمع والارهاب ومصادرة الحرية والهوية. وفي سفر الفلاّحين الحافل بالنضال ضدّ كل اشكال القهر، تعتبر "حرب العصابات" التي خاضوها في الخمسينات مأثرة صنعوها بمبادرة منهم. وقد برز في خضم هذه الحركة مناضلون كبار مثل الطاهر الاسود والعجيمي بن مبروك ومصباح الجربوع وحسن بن عبد العزيز وعمارة زلوغة وهلال الفرشيشي واحمد الازرق وبلقاسم البازمي والطيب الزلاق والازهر الشرايطي وغيرهم كثير. وقد تفطن الحزب الحر الدستوري "الجديد" الذي كان أهمّ الاحزاب الوطنية آنذاك الى ما كانت تنطوي عليه الارياف من طاقات نضالية كبيرة ،فاقتنع بضرورة ربط نضاله في المدينة بحركة الفلاّحين في الأرياف. وكلل مسعاه بالنجاح واستطاع حشد الفلاحين الثائرين حوله وتزويدهم بصياغة واضحة وناجعة لتطلعاتهم. وقد أدّى هذا الالتحام الذي حصل لاول مرة منذ 1881 بين النضال ضدّ الاستعمار في المدينة والنضال ضدّ الاستعمار في الارياف الى خضوع فرنسا لارادة الجماهير واعترافها بالاستقلال السياسي للبلاد عام 1956.

صفوة القول، لقد ناضل الفلاّحون على امتداد ثلاثة أرباع قرن ضدّ الاستعمار. ولم يكن هذا النضال ليخبو أحيانا الا ليعود أكثر توهجا .ولم يثن الفلاّحين عن هذا النضال المرير تنكّر الكثير من المثقفين والسياسيّين في المدينة لهم او تنديد الطرق الدينية المتواطئة مع الاستعمار بهم او استفظاع الكثير من وجهاء القوم لتحركاتهم،كما لم تزدهم محتشدات "كيّان" (CAYENNE) الرهيبة او الاعدامات في السّاحات العامّة إلاّ إصرارا على المقاومة.

لقد حفظ لنا التاريخ الكثير من أسماء المناضلين الذين تخرجوا من جامعة الارياف التونسية،جامعة تونس الاعماق،جامعة الذين صنعوا خيرات تونس المادية على امتداد آلاف السّنين. الا ان أعدادا لا يستهان بها من الفلاّحين الذين سطّروا صفحات رائعة في مجال النضال ضدّ الاستعمار ماتوا مغمورين ولم يذكرهم أحد،وأغلب الظن أنهم سيظلون الى الابد نسيا منسيًا ،ذلك هو حكم التاريخ الذي لا مردّ له.